برج بابـــــل

الكويت ، بلد حديث النشأة والتكوين لم يمر على ظهور الحياة فيه أكثر من بضع مئات من السنين قد نقل كثيراً عن أصابع اليد الواحدة ، وأما أهميته ومركزه الحربي والسياسي ، وتطوره السياسي وبروزمشاكله إلى العالم الخارجي ، فلم يمر عليه كما أظن أكثر من خمسين سنة ، إلا أن تطوره التجاري والاقتصادي ، ووقوعه كمركز ممتاز للتجارة في هذه البقعة الحيوية من العالم هي التي اكسبته أهمية اقتصادية عظمى كمركز لنقل البضائع من العالم الخارجي إلى نجد الذي يعتبر الكويت الميناء المهم الوحيد لها ، وكذلك إلى بعض أجزاء إيران والعراق .

فالمشاكل السياسية والدينية والاضطهادات التي حصلت في إيران في خلال منتصف هذا القرن قد حدت بالكثيرين أن يتخذوا الكويت مستقراً لهم وموطنا . فمنهم من هاجر بعائلته إلى الكويت وقطع علاقته بإيران نهائياً ، ومنهم من ظلت علاقته بها قوية حتى الوقت الحاضر . وخلال حكم الأتراك للبلاد العربية استقر في الكويت عدد كبير من العائلات المهاجرة من الاحساء والقطيف والبحرين والبصرة ونجد وغيرها ، هـذا بالاضافة إلى استقرار عدد كبير من أفراد العشائر البدوية نهائياً ، وهجرهم حياة الصحراء والرعي إلى حياة المدنية والقرية . . . ولكن الملاحظ أن كثيراً من النازحين إلى الكويت هم من سكان نجد ، حيث كانت ومازالت المعيشة شاقة متعبة ، وموارد الرزق والعيش محدودة ، ولذلك امتلات بهم أحياء كبيرة من البلاد فزاولوا أولا التجارة الداخلية والخارجية، ومايزالون كذلك إلى وقتنا هذا ، وأغلب هؤلاء قد قطع علاقته مع نجد ، إلا أن وشائج القربى لازالت تربطه ببعض الأفراد والجماعات هناك.

وقد كانت الكويت مفتوحة من جميع النواحي ، تقبل الأجانب ، من كل جنس ، ولا ترد منهم أحداً ، مهما كان جنسه ودينه ، فكانت ملجأ رحباً للنازحين من ديارهم ، وكانت الهجرة إليها مباحة ، ولذلك فقد ساور بعض أهلها الخوف ، في وقت ما بأن تطغى العناصر الأجنبية على أهل البلاد الأصليين فيصبحوا أقلية أوأجانب في بلادهم بين هؤلاء الكثرة من النازحين .. ثم كانت الحرب الأخيرة ، وكان البترول .. والعمل .. والنقود .. والتضخم وشح الأيادي العاملة الوطنية للقيام بالمهام والوظائف اليدوية والبدنية وشبه الفنية والفنية في شركة الذهب الأسود الجديدة ، فأعلن المنادي في مشارق الأرض ومغاربها أنه من أراد الغنى والثروة ، ومن أراد العمل والوظيفة ، ومن أراد الأمان والرخاء فعليه بالكويت ... فأعادت شوارع الكويت وأسواقها إلى الأذهان ماكنا نقرأه في الكتب عن أسواق بغداد أيام الرشيد أو « برج بابل » المشهور أو جيش سيف الدولة ، الذي يقول عنه المتنبي « وماتفهم الحداث الا التراجم » ! أو مرقعة السندي . .

وقد قص عليّ أحد الزملاء الذين مكثوا مدة طويلة بمصر أنه عندما عاد إلى الكويت قبل ثلاثة أعوام ، وذهب إلى أحد الحوانيت لشراء حاجة له ، وقف بقرب المحل لينتظر صاحب الدكان لكي ينتهي من أحد زبائنه ، فماكان من صاحب المحل إلا أن ابتدره (بالهندستاني) قائلا : أهلا وسهلا شرفت المحل ، ماذا تأمر من خدمة ؟ فماكان من

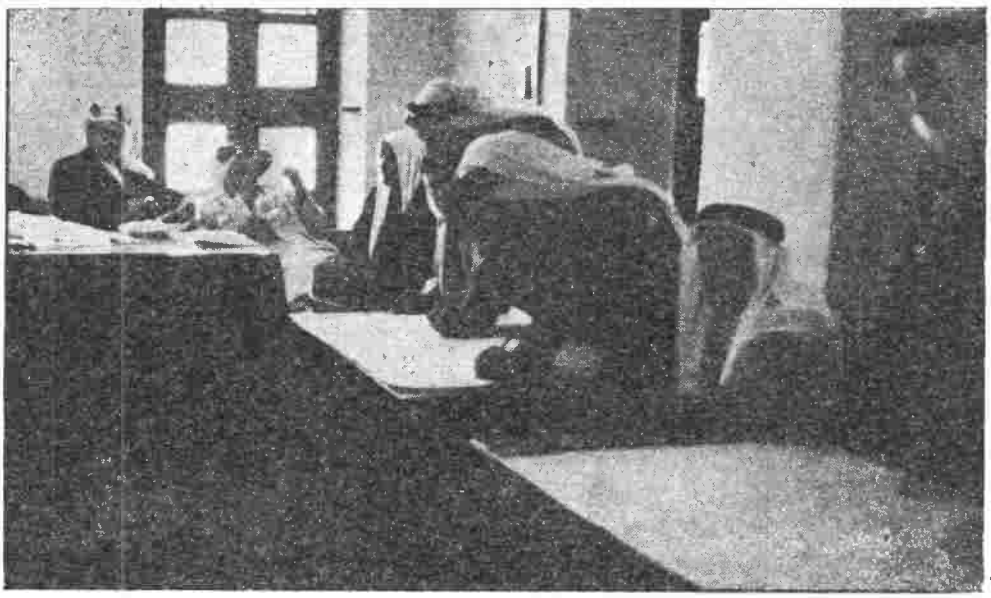

لجنة فرز الأصوات المكونه من : سعادة الشيخ عبدالله الجابر — فضيلة الشيخ يوسف ابن عيسى — فضيلة الشيخ أحمد الخلف — السيد نصف اليوسف — السيد خالد الزيد وهي تزاول عملها في عملية الانتخابات الأخيرة

صاحبي إلا أن أجابه بلهجة كويتية سليمة بأنه لم يفهم ماهو قصد البائع بكلامه الطويل ، فتصور إلى أى حد أصبح الكويتى لا يُعرف فى بلد كان يتفاخر كل شخص فيه بأنه يعرف أغلب أو جميع مواطنيه ، مع أن صاحبي هذا من عائلة معروفة جداً ..

من خلاصة هذه المقدمة التى ذكرتها أستطيع أن أقول أننا يمكن أن نشبه الكويت بإحدى القارات الجديدة التى عندما اكتشفت سرعان ماهاجر إليها الناس من العالم القديم لأسباب مختلفة ، منها الاضطهادات القيصرية والدينية والسياسية ، ومنها الاقتصادية ، جرياً وراء الثروة فى العالم الجديد ، أو لقلة موارد العيش ، ولضيق سبل الحياة فى بعض أقطار العالم القديم سابقاً ، ولكن هذه الأجناس المختلفة المتنوعة جنساً ولغة ودياناً عندما حلت فى تلك البلاد واستقرت فيها تجانست وتآلفت ، وأصبحت تحمل جنسية واحدة وتعيش من أجل هدف واحد تسعى إليه فنسيت الماضى ولم تفكر إلا فى الحاضر . وخير دليل على ذلك مثلا هو الولايات المتحدة الأميركية ، ويمكن أن نضرب مثلا أى قطر من أقطار الأمريكتين .. فمن أراد منهم أن يكون أمريكياً ، له أن يتمتع بما يتمتع به الأمريكى من حقوق وعليه ماعلى المواطن الأمريكى من واجبات نحو وطنه وشعبه الجديد ، ومن أراد أن يبقى على جنسيته الأصلية وهذا نادر فيستطيع أن يعيش هناك ، كما يعيش الأجنبى فى أى بلد من بلادالعالم الواسعة .

وقد صهرت الثقافة الموحدة الجميع فى « بوتقة » واحدة وأخرجت من هذه الأجناس المختلفة بعد مرور أجيال قليلة شعباً جديداً متآلفاً متجانساً ، لايعرف ولا يدين إلا بأن أرض الولايات المتحدة أرضه ووطنه ، ولغتها لغته ، وعلمها وتقاليدها وتراثها علمه وتقاليده وتراثه ، فنسى الوطن السابق لأنه يعيش فى خيرات الأرض الجديدة ، وانقطعت صلته بالأرض الماضية ، ولو رجع إليها يوما ما ، فإنه لايستطيع العيش كما كان أجداده سابقاً ..

والآن ، أريد أن أعرف ماهوالوطن ؟ وهل هوأرض وسماء وهواء ؟ فالأرض التى نعيش فيها ونأكل من خيراتها ونتمتع بما يتمتع به المواطن القديم هى وطننا ، ولو أننا لم نمكث فيها قرونا طويلة بل عدة سنوات !! . أو أن الوطن تراث قديم ، وصلات بين الأجيال ووشائج روحية يتوارثها الأبناء عن الآباء .. فإذا كان الوطن هو كذلك كما يدعى البعض ، فلا أعرف ماذا يكون حكم من يترك أرض تراثه القديم ، ويعيش فى بلاد جديدة بغية الإقامة الدائمة مع عائلته وأولاده وأحفاده ؟! . فهل باستطاعة القلب الواحد أن يكن الحب والتقديس لأرض البلدين ويرتبط بالرباط الروحى لهما جميعاً ؟ وخاصة بعد أن يمكث مدة طويلة فى أرضه الجديدة ويتجنس بجنسيتها ويرضخ لأنظمتها وقوانينها ويتكلم لغتها ويعيش تحت حماية رايتها ..

لقد كتبت هذه الأسطر السابقة ، تحت تأثير ماوصلنا من الكويت حديثاً من أن بعض الأفراد المواطنين الذين يجمعهم أصل مشترك قد التجأوا إلى سمو أمير البلاد بعد ظهور نتائج الانتخابات لبعض المجالس مدعين أنه لم يفز أحد من جنسيتهم (السابقة طبعاً) بعضوية أحد المجالس ، ولا أعرف هل أن لهؤلاء الأفراد — ومن يمثلون جميعاً — جنسية رسمية غير الجنسية الكويتية ؟ لأننى أعرف أن أغلبهم يحمل جواز السفر الكويتى ، وهذه الوثيقة لايحملها إلا من كانت جنسيته كويتية ، وإذاً فإن جميع المنتخبين من الأعضاء هم كويتيون ، جنسيتهم مثل جنسية هؤلاء المدعين .. اللهم إلا إذا كان هؤلاء المدعون يحملون جنسية أخرى غير الجنسية الكويتية ، وكانوا يعتقدون أن الكويت تحكم بمجالس مختلطة معينة أو منتخبة من جميع الأقليات والجنسيات القاطنة حالياً فى الأمارة ؟ فهم ولاشك على خطأ جسيم إن كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد ، فلا يدير مجالس الكويت إلا الكويتيون — وبدون أى تعليق لا أقول الأصليين — فنحن لانتفاخر بالأصل ، إنما ينتخب الكويتى المصلح النافع للكويت ، بغض النظر عن مشاكل الأصل والعروق والفروع ..

وكذلك ماحمله لى أخيراً أحد الأصحاب بأنه كان فى قطار أحد البلدان التى لا تنظر لحامل الجواز الكويتى بعين الرضى .. فسأل مأمور الجوازات أحد الأشخاص ، — ودعونا من ذكر الإسم — هل أنت كويتى ؟ فما كان منه إلا أن أجاب بأنه ليس كذلك ، فابتدره المأمور قائلا : ولكن جوازك كويتى !! . فأجاب قائلا : إنه يحمل الجواز الكويتى لأجل مصلحته وفائدته الخاصة لتسهيل سفره ، إلا أنه ليس كويتياً ، مع أنه ولد فى الكويت ، وعاش مع أفراد عائلته من خيرات الكويت أمداً طويلا ، ومع ذلك يريد أن يحمل لسانه — وليس قلبه — على الأقل ، أنه كويتى !!.. فتصوروا ياناس قلة الإخلاص ، وهذا الجحود والنكران ؟..

وخير ما أختم حديثى به هوقول الرسول (ص) : « أن الفتنة نائمة فلعن الله من أيقظها » ..

بومبى — يعقوب الحمد